المكابر الثاني
«فأصبح من النادمين»

هو أوَّل من تخرج في مدرسة المكابرة والبغي والحسد والظلم التي أنشأها المكابر الأوَّل «إبليس» نعوذ بالله منه.

نعم؛ لقد حمل شهادة مدرسة الذنوب الشيطانية، قسم الحسد والبغي والمكابرة بجدارة واقتدار.

لم يتراجع عن بغيه وظلمه، ولم يستجب لدعوة أخيه إلى الحلم، والرحمة والإحسان، وكيف يستجيب لذلك وهو تلميذ نجيب لرائد البغي والحسد والمكابرة الذي خرج من جنة عرضها السماوات والأرض بإصراره على مكابرته؟!

إنه المكابر الثاني «قابيل» بن آدم عليه السلام الذي نفذ أوَّل جريمة قتل في حياة البشرية، وأقدم على أبشع عمل يمكن أن يقوم به أخ مع أخيه.

عن ابن مسعود وغيره من الصحابة ﷺ قال: إنَّه كان لايولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن، جارية هذا البطن الآخر، ويزِّوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما : قابيل وهابيل.

وكان قابيل صاحب زَرْع، وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما.

وكان له أخت أحسن من أخت هابيل.

وأنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال : هي أختي.. ولدت معي..

وهي أحسن من أختك..

وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها.

فأمره أبوه أن يزوِّجها هابيل، فأبى.

وأنهما قرَّبا قرباناً إلى الله ـ عز وجل ـ، أيُّهما أحقُّ بالجارية.

وكان آدم عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكَّة ينظر إليها، قال الله عز وجل لآدم:

هل تعلم أنَّ لي بيتاً في الأرض؟

قال: اللهم لا.

قال: إنَّ لي بيتاً في مكَّة فأته.

فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت.

وقال للأرض: فأبت.

وقال للجبال: فأبت.

فقال لقابيل: فقال: نعم، تذهب، وترجع وتجد أهلك كما يسرُّك.

obeikandl.com

فلما انطلق آدم عليه السلام «إلى مكة» قرَّب قابيل وهابيل قرباناً، وكان قابيل يفخر على أخيه فقال: أنا أحقُّ بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصيُّ والدي.

فلما قرَّبا.

قرَّب هابيل جذعة سمينة.

وقرَّب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل.

فغضب وقال: لأقتلنك حتى لاتنكح أختي.

فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص55

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نهي «آدم» عليه السلام، أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد لآدم في كلِّ بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة "أي: جميلة"، وولد له أخرى قبيحة دميمة.

فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك، وأنكحك أختي.

قال: لا، أنا أحق بأختي، فقرَّبا قرباناً فتقبل «الله» من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنَّ الله سبحانه وتعالى قبل الكبش من صاحبه، فخزنه في الجنة أربعين خريفاً، فهو الكبش الذي ذبحه ابراهيم عليه السلام «فداء لإسماعيل».

وتشير بعض الروايات إلى أنَّ هابيل قدَّم أكرم غنمه وأحسنها وأسمنها وكان طيب النفس بما قدم.

أما قابيل فقدم أشرَّ حرثه، غير طيبة بذلك نفسه، فتقبل الله سبحانه وتعالى قربان هابيل.

وتشير بعض الروايات إلى أن آدم عليه السلام قال لقابيل: يا بنيَّ إنها لا تحلُّ لك، فأبى أن يقبل ذلك من قول أبيه، فأمرهما أن يقربا قرباناً، وقال: أيّكما يقبل الله قربانه يكون أحقَّ بها، فقبل الله قربان هابيل.

وتشير روايات أخرى إلى أن قابيل وهابيل كانا قاعدين، فقالا: لو قرَّبنا قرباناً، ولم يكن في وقتهما مساكين يأخذون الصدقة، وإنما كانت القرابين، فكان الرجل منهم إذا قرب قرباناً فرضيه الله، أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النَّار.

فقرَّبا قربانهما: قربان قابيل من الزَّرع، وقربان هابيل من الغنم، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان أخيه، فقال قابيل لأخيه، أتمشي في الناس وقد علموا بأن قربانك قد قبل، وقرباني ردَّ عليَّ؟

لا والله لا ينظر الناس إليك وإليَّ، وأنت خير منِّي، لأقتلنك.

فقال له هابيل: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

ومهما اختلفت الروايات في شأن هذين الأخوين، فإنَّ أصل القصة ثابت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والعبرة بما جرى بعد ذلك.

لقد تحركت عوامل الحقد والحسد في قلب قابيل، فأغلقت عليه مسارب الحكمة والرحمة، وأعمت عينيه عن رؤية الحق، وأصمَّت سمعه عن سماع كلمة الحق الواضحة.

لأقتلنك: عبارة صاغها الحقد، وصرخ بها الحسد، ونفَّذها عملياً البغي، وكانت المكابرة هي التي توَّجت الموقف، لأنها جعلت قابيل أعمى وأصمٍّ أمام نصيحة أبيه، وحكمة وسعة صدر أخيه، وإلاَّ لو أنَّ نفسه تواضعت، لما قال ـ أصلاً ـ: لأقتلنك.

ولو أنَّه سلم من مكابرته القاتلة، لتأثَّر بقول أخيه وتراجع عمَّا عزم عليه من اعتدائه الأثيم.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 28-29].

كلام صريح واضح لايمكن أن تتجاوزه النفس المتواضعة، والقلب السليم، كلام فيه الموعظة، وفيه الحكمة، وفيه الورع، وفيه التحذير من عذاب الله.

ولكنَّ ذلك كلَّه يتلاشى أمام حقد "المكابر" الذي لم يعد يفقه الحق، ولا يعرف معنى الرفق.

ماذا كانت النتيجة؟

طوَّعت له نفسه المكابرة، ووجدانه المغلق قتل أخيه، فقتله بإصرار وتصميم.

هنا وصل به حقده وبغيه ومكابرته إلى أقصى درجات العنف.

وهنا أصبح من الخاسرين، وهذا إخبار إلهي بأنَّ الخسارة قد أصبحت هي النتيجة الحقيقية لهذا الذي جرى، ويالها من خسارة عظيمة للدنيا والآخرة.

لقد هوت المكابرة بصاحبها إلى أسفل سافلين، فها هو ذا يقلِّد الغراب الذي دفن غراباً آخر في التراب، فيدفن جثَّة أخيه المظلوم، في منظر حزين أليم.

«**فأصبح من النادمين**».

روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قوله: «**لاتُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوَّل كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوَّل من سنَّ القتل**».

ونقل ابن كثير عن مجاهد في كتاب التفسير قوله:

عُلِّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، وجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

وأقول: كم من مكابر وقع في خندق الندم الذي وقع فيه قابيل بعد قتل أخيه.